البيت البعيد

قصة

بقلم: وليد حاج عيد

الى روح الطفلين شهيدي معركة فندق الامبسادور في القدس المحتلة .

صاحت الطفلة الذهبية الشعر وهي تطل برأسها من النافذة في الدار الفخمة : والدي ، لقد عاد القنفذ يحاول سرقة الدراق .

وزمجر صوت من داخل الغرفة : لعنة الله عليه ، انني قادم ،هذه المرة لا بد من جلده بالسوط .

وبعد ان استشعر الطفل الذي كانَ ينطلق بعيدا عن المكان ، بقفزات سريعة رشيقة ، انه ابتعد بعدا كافيا ، وقف ليوجه حجرا من مقلاعه الى الطفلة التي كانت تحاول ان ترشد والدها الى مكانه ثم استأنف عدوه بعد ان اخطأ الهدف .

كان الطفل الان يجتاز الحقول متجها باتجاه البيوت الصغيرة الصفراء في الطرف البعيد الاخر .

ـ لن يطولني الرجل الفظ الان (حدث نفسه بهدوء) . لقد دعتني بالقنفذ . (ونلمس شعره الخشن المنتصب كالشوك) اجل ربما اكون قنفذا ولكني سأريها كيف تهزأ مني ،

ولاح له المنزل بلونه الاصفر في قيظ الظهيرة ، وسحب الدخان المتصاعدة من الفرن الطيني الصغير تدفعها الريح غربا .

وامتلأ صدر الطفل بالغم ونفض الغبار والاتربة عن ملابسه البسيطة ، ان امه لو رأت قليلا منها على ثيابه لما نفعه عندها شفاعة الانبياء ، بالاضافة الى ما يمكن ان يحدث اذا علمت والدته بما جرى بينه وبين الرجل البدين صاحب الارض والبيوت ، وعض على شفته نادما على فعله . فان هذا القميء سيأتي في الغداة الى امه ويبدأ حملة من التهديد والوعيد اقل ما فيها ان عليهم يتركوا البيت ويوجدوا مسكنا اخر ، والمساكن باهظة الاجور ، وانى للقروش القليلة التي تكسبها العائلة ان تكفي . وهز الغلام رأسه بأسف حقيقي هذه المرة وكان قد تخطى عتبة المنزل ، جلس على الارض ليلتهم ما وضعته امه امامه من طعام .

ـ الحمد لله .

وتراجع عن صحاف الطعام .

عادت امه تنصت للحديث الذي قطعه عملية اطعام ابنها والذي كانت تتبادله جدته مع جارهم العجوز . بينما استلقى هو على الارض اشبه بقط كسول متخم المعدة ، مغمض العينين نصف اغماضة يراقب ما يجري بهدوء . ان جارهم العجوز يبدو وقد استخفه الفرح في هذه اللحظة ويكاد ان يقفز من مكانه لشدة حماسه لما يقال :

ـ هل اعتمدت اذن على الذهاب للحدود ؟

وافترت شفتا الجار العجوز في بسمة راضية .

ـ اجل سنذهب في الاسبوع القادم . قالت جدته .

ـ سيكون الامر ممتعا وسأرافقكم ، وسأتعرف بالمناسبة على الجد ، ترى كم ستدوم فترة الزيارة ؟.

ـ لست اعلم ، ولكن لا اقل من اثنتي عشرة ساعة .

وترنحت في اعين الجار العجوز نظرة المرح السابقة وبدأت الكآبة تكسو ملامحه وسأل :

ـ هل ستكون للزيارة بحضور حرس من اليهود والعرب ؟

ـ بالطبع .. ولكن سمعت انك تستطيع ان تقف انت وقريبك مدة لا بأس بها وربما تستطيعان ان تأكلا معا وتشربا معا وتتناولا بعض الاحاديث ...

وصمتت الجدة قليلا وهي تفكر ثم استأنفت بلهجة متسائلة :

ـ من الاشخاص الذين ترغب في مقابلتهم ؟.

ـ هه .. من ؟ كثيرون .. اخي واولادعمي ومعارفوغيرهم..

ـ وهل بقي اخوك في فلسطين وانيت أنت ؟.

ـ اجل ..

ـ ولماذا بقي يا ترى ؟..

اجاب الجار العجوز وهو يحاول ان يستحضر صورة اخيه في ذهنه تماما كما هي قبل ستة عشر عاما : انه عنيد ، وقد اصر على عدم مغادرة الارض ، كان كأن به مسا من الجنون . كان يهذي .. قال بانه سيقتل كل من يحاول ارغامه على فعل ذلك وان لم يستطع فسيقتل نفسه .

ـ وهل فعل شيئا من هذا القبيل ؟..

ـ اجل فعل الكثير ، وقد سمعت من اخر النازحين انه سيحرق الدار قبل ان يغادرها ..

سألت الجدة بلهفة هذه المرة : ترى اما زال حيا ؟..

واتسعت حدقتا الطفل وهو ينظر الى الجار العجوز ويرفع رأسه عن الارض منتظرا الاجابة والانفعال باد على محياه .

وغمغم العجوز بحزن وحيرة : لست ادري .

وسأل الطفل هذه المرة : ترى يا عمي هل وفى بوعده ومنع اليهود من دخول الدار واحرقها ؟ يا الله هل يعقل ان يقتل نفسه ؟.

وجمدت نظرة الجار العجوز وهو يقول : عرفته يفي بوعده . وابتدأت اصابعه ترسم في التراب صورة من الذاكرة لرجل صعب المراس عجز العجوز عن ايضاح قسماته بالرسم وران الصمت على المكان ، وسمعت الريح تهمس بصوت ابح مخنوق في اعالي اشجار الحور ، ويممت الافراس الذهبية لعباد الشمس وجوهها باتجاه الغرب واغمض الطفل عينيه اشبه بقط ممتلىء المعدة ، ولما ارتفع غطيطه اسبلت الجدة فوقه غطاء خفيفا .. كان الطفل نائما الان .

تحت اشجار الزيتون وعلى مبعدة من الشريط الفاصل بين الارض المحتلة بحوالي كيلومتر تجمعت سيول البشر الوافدة من جميع الاقطار .

سأل الطفل جدته وهما جالسان تحت شجرة زيتون : ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا ؟.

واجالت الجدة نظرها في وجوه البشر التي كستها التربة الحمراء بطبقة من الغبار وهي تجيب : انهم مثلنا .

ـ هل الكل فلسطينيون يا جدتي ؟.

ـ نعم يا ولدي ..

وكان الجار العجوز يحدق في الغلام الصغير الذي شعر بأنه بدأ يفهم ما يجري بأسى . وما لبث ان طوى بناظريه المسافة الفاصلة بينه وبين الشريط وبقي ساهما هكذا .. ان النسيم يأتي في هذه الساعة حاملا عبق ازهار شجر الكندول الصفراء التي تظلل سفح الجبال

القريبة وراء الشريط من جهة الغرب . ومرت ساعة او نيف من الضحى قبل ان يطل طرف الموكب القادم من وراء الحدود ويندفع في الساحة التي تغطيها اشجار الزيتون .

وصاحت الجدة مخاطبة الغلام والعجوز وهي تلتهم بعينيها وجوه القادمين :

ـ كيف سأجد جدك في كل هذا الازدحام ؟.

وعادت الجدة للصمت وهي تنقل نظرها بسرعة هائلة بين الوجوه وكذلك الجار العجوز ، وما لبثت ان عادت تصيح :

ـ أليس هذا جدك يا ولدي آه ... ولكنك لا تعرفه ... يا رب بلى انه هو ... اسرع اليه وارشده الى مكاننا قبل ان نضله ، أسرع ايها الصغير .

واجتاز الطفل المسافة عدوا .. وعندما وصله قالها لاول مرة في حياته الصغيرة ..

ـ جدي .. جدي .. اننا هنا ..

همست الجدة بعد ان تمالكت روعها وهي تتأمل الجد مليا :

ـ كم تغيرت في هذه المدة ! يخيل الي ان رأسك اشتعل شيبا.

ـ صحيح ، اصبحت شيخا عجوزا .

وداعب باصابعه شعر الغلام القاسي وهو يقول :

ـ ان شعره قاس جدا .

وغض الطفل من بصره وجدته تقول :

ـ الشياطين الصغار ينادونه بالقنفذ .

وصفع جده مؤخرته بيده الثقيلة مقهقها : «حقا ..؟» والتفت الى الجدة التي بادرت بالسؤال :

ـ هلا اخبرتني ماذا تفعل هناك الان ؟

اجاب الجد : انني اعمل ناطورا لقاء سكني وقليل من النقود .

استفهمت الجدة : ـ اين تسكن ؟

ـ لقد بنيت كوخا صغيرا لي في قطعة الارض المتبقية امام الدار .

ـ آه .. لماذا .. ودارنا ماذا جرى لها ؟..

ـ استولى عليها اليهود .. لقد سمحوا لي باشادة الكوخ كما قلت لك .

ـ حسنا لا بأس .. وهل دارنا في حالة حسنة ؟.

ـ اجل انها اجمل من السابق لقد طلوها طلاء جديدا ونبتت بعض الاشجار في الحديقة ..

وكمن يحلم اتم قائلا : ـ انها رائعة الان .

ـ وماذا جرى لشجرة الجميز التي زرعتها انا ؟ ترى هل قطعوها؟..

غمغم العجوز : لا ابدا .. لم يقطعوها انها باسقة الان ، لم ار في حياتي شجرة جميز مثلها .. ليتك ترينها وهي تغمر المكان بالظلال .

وكأن الطفل قد استفاق الان من غفلة وذهول فاستفهم :

ـ اية دار يا جدتي ؟..

ـ دارنا ياولدي . (ووجهت حديثها للجد) : آه انه لا يعلم شيئا ان لنا دارا يا ولدي .

وبدا الطفل ابله لا يفهم اطلاقا : اية دار .. انها ليست لنا .. نحن ندفع للرجل البدين صاحب الفيلا والدراق مقابل سكننا .

وقالت الجدة بحيرة : انه لا يفهم .. انها ليست تلك البيوت التي تعرفها ، انها دار فخمة كبيرة في فلسطين .

وسأل الطفل ببلاهة طفولية :

ـ ولماذا لا نعود مع جدي اليها ؟.

ـ انت احمق ! كيف نذهب ؟ الا ترى ان اليهود اخذوها منا ، الم تسمع ما قاله جدك ؟..

واطرق الطفل قليلا كمن استغرق في تفكير وفجأة وبغضب طفولي اجاب : سأحرقها اذن .

وكمن يتنبأ بالمستقبل او يقرأ اشياء في جبين الغيب قال الجد بصوت واهن :

ـ اجل ربما يكون صحيحا ما تقوله ايها الصغير .. حلمت مرة بشيء من هذا القبيل وقد كان الحلم من الشدة بحيث استيقظت من كوخي في الليل وخرجت اتأكد من ان الدار لم يصبها اذى .. مر علي هذا الحلم زمن طويل ولكني لا زلت اذكره .. اجل ربماتحرقها ولكن ما اجمل لو تراها ايها الصغير .. على اية حال لا احد يعلم ، ربما تراها ..

وبدا شبح الجار العجوز يتقدم نحوهم في هذه اللحظة متثاقلا، وصاح الغلام بصوت عال :

ـ اين كنت ، اين اختفيتيا عمي كل هذا الوقت ؟..

ـ كنت ابحث عن اخي ومعارفي ..

ـ وهل رأيت اخاك اين هو ؟اريد ان اراه .

وتدفقت الكلمات من فم الطفل بسرعة ..

اجاب الجار القديم ببطء .

ـ لم اعثر عليه

وثبت انظاره في بقعة من نبات الهندباء ، سألت الجدة :

ـ هل بحثت جيدا ؟ .. خير لك ان تعيد البحث .

ـ لا فائدة ، لقد سألت بعض معارفي عنه .

ـ ماذا قالوا ؟.

ـ قالوا لي لم يره احد منذ النكبة ..

قالت الجدة بحيرة : ـ ترى ماذا عساه يكون جرى له ؟..

ـ لا احد يعلم ربما يكون قد قتل .

قال ذلك ومن غير ان يلحظ وجود الجد سار بضع خطواتاستلقى بعدها على الارض الندية الحمراء واسلم نفسه للنوم .

وبحلول الاصيل انتهت مدة الزيارة ، كان نيسان قائظا على غير عادته في هذه السنة .

كان الطفل يلعب معمجموعة من الصبية بينهم الفتاة الذهبيةالشعر ابنة صاحب الارض ولم تفلح هذه في القبض على فراشة واحدة فاقتربت من الطفل قائلة :

ـ ايها القنفذ .. اعطني هذه الفراشة :

ـ لن اعطيك اياها .. انا الذي اصطدتها .

ـ ليكن ، اريدها .

ـ لن اعطيك شيئا .

ـ حسنا سأقول لوالدي .. وسأقول انها فراشتي وانك ضربتني واخذتها مني وانت تعرف ما سيفعل عندها .

قال الطفل بغضب : ماذا سيفعل .. ليفعل ما يريد ..

ـ حسنا سأقول له ما قلت انت وسيطردكم من البيت لانه لنا..

كان الطفل بصغي هذه المرة وما قالته الفتاة جاء تأكيدا لما كابر الاحساس به واستمر في الصمت . واستدارت افراص عباد الشمس المصلوبة تحت السماء تحدق في سمت القبة الشديدة الزرقة ونراخت قبضة الطفل عن الفراشة .. وهو يقول :

ـ حسنا خذيها ..

واستدار ماضيا صوب البيوت الشديدة الصفرة ، وسحب الدخان تدفعها الريح غربا . ولما استلقى في داخل البيت كقط مقهور اخذ يحلم وعيناه مفتوحتان بالبيت البعيد الغارق في شجرة الجميز الباسقة ..

حاشية : سمحت السلطات الصهيونية في العام ١٩٦٤ بالزيارة . وقد الفت السلطات الغاصبة في اماكن كثيرة الزيارة التي كانت مقررة نظرا لحدوث بعض الاضطرابات التي افتعلها الغاصبون .

وليد حاج عبد